الشعر المصري في مائة عام :

علي الليثي

للاستاذ محمد سيد كيلاني

١٨٢٢ — ١٨٩٦

— ١ —

ولد الشيخ علي الليثي بمدينة القاهرة . وقد نسب إلى الإمام الليث لأنه كان يقيم في مطلع حياته في ضريحه .

التحق الليثي بالأزهر وظل مشتغلا بطلب العلم حتى وفد على مصر الشيخ السنوسي الكبير قاصداً أداء فريضة الحج فاتصل به وأخذ عنه الطريق وحج معه . ولما عاد إلى مصر لم يفارقه بل سافر معه إلى جغبوب ، وأقام هناك مدة يطلب العلم . ثم فارقه وعاد إلى مصر واتصل بأم عباس باشا الأول فجعلته شيخاً على مجلس دلائل الخيرات عندها ثم اتصل أيضاً بالأمير أحمد باشا رفعت بن ابراهيم باشا الكبير وشقيق الخديو اسماعيل فاعتقد فيه وأطلعه على خزانة كتب عديدة .

وقد اتهم بالاشتغال بفنون السحر والشعوذة والزايرجة والإخبار عن الغيب والكشف عن الطالع وغير ذلك مما هو مشهور عن المغاربة . فنفي إلى السودان في عهد سعيد الذي أمر بجمع كل من يأكلون أموال الناس بمثل هذه الخزعبلات وإبعادهم إلى السودان . فبقي هناك مدة من الزمن ثم عفى عنه فرجع إلى مصر .

والظاهر أنه كان قد عرف الخديو اسماعيل حينما كان يتردد على منزل أخيه الأمير أحمد رفعت وذلك في عهد سعيد . فلما تولى هذا الخديو قرب الليثي إليه وجعله هو والشيخ علي أبا النصر نديمين له يحضران مجالس أنسه وتزول الكلفة بين الحاضرين فيتبسطان في القول ويملآن المجلس فرحاً وسروراً بالنوادر المطربة والفكاهات المضحكة . وقد بلغ من شغفه بهما أنه خصص لهما قاعة بالديوان الخديوي يجلسان فيها كأحدهما من المستخدمين . وقد قرأ في الوقائع المصرية مثل هذه العبارة : « قصيدة فائقة للشيخ علي الليثي المنشيء بديوان المية السنية » وتقرأ مثل هذا عن الشيخ علي أبي النصر ، فتظن أنهما كانا يقومان بالكتابة الإنشائية . والواقع أنهما لم يزاولا الكتابة قط ، إنما هو لقب منح لكل منهما .

وقد تمتع الليثي بجاه كبير في عهد الخديو اسماعيل . فكان الناس يلجأون إليه متوسلين به ومتشفعين في قضاء الحاجات . وظل الشاعر محتفظاً بمكانته في أيام الخديو توفيق . وكان قد انضم إلى الحركة العرابية فلما قضي عليها نظم قصيدة تبرأ فيها من تهمة العصيان فعفا عنه الخديو وزاده قرباً منه .

ولما بنى الخديو توفيق قصره في حلوان كان ينتقل إلى ضيعة الليثي بشرق اطفيح ويقيم عنده يوماً . ولهذا اعتنى الليثي بضيعته فشيد فيها قصراً وغرس الحدائق والكروم .

ولما تولى الخديو عباس أعرض عن الليثي ، ولا عجب في ذلك . فقد كان صاحبنا في العقد السابع من عمره على حين كان الخديو في الثامنة عشرة . ثم إن عصر الليثي كان قد انتهى فأقام في ضيعته وكان كثير من الأدباء يزورونه هناك أو في داره بباب اللوق فيكرم مثواهم ويحسن لقاءهم . وبقي على ذلك حتى مات في عام ١٨٩٦ .

شعره

لا يوجد بين أيدينا ديوان لليثي . ولا نعرف أنه قال شعراً قبل عصر اسماعيل . وقد اعتمدت في حديثي عن شعره على ما نشر في الوقائع المصرية . وتتبعت شاعريته في عهدي اسماعيل وتوفيق

قال يمدح الخديو اسماعيل :

أنعم بطيب ليال لحن كالغرر ... في جبهة الدهر تسمو عن سنا القمر
بها تزف الأماني في مواكبها ... لكل راج ويرعاها أخو السمر
علا بها الدهر شأناً وهي تتحفه ... بحلية المجد حتى فاز بالوطر
قد قلدت كل جيد من بدائعها ... وأنعمت بمراد السمع والبصر
كأنها والليالي الغر سالفة ... ليلات قدر توافينا على قدر

وقفت أمام هذه الأبيات وحارات أن استكشف ما حوته من المعاني فلم أظفر بشيء . واجتهدت في استخراج الصورة الشعرية التي تخيلها الرجل حينما نظم هذه القصيدة فلم أحرج بصورة ولا شبه صورة . ليال لحن كالغرر . بها تزف الأماني لكل راج . وما معنى

قوله « ويرعاها أخو السمر » ولم خص أخا السمر؟ « علا بها الدهر » وهنا كرر كلة الدهر . وهذه الليالى تتحف الدهر بحلية المجد . فما معنى هذا ؟ وكيف فاز الدهر بالوطر؟ وما هو المعنى الطريف فى قوله « وأنعمت بمراد السمع والبصر » ؟ ثم قال « كأنها والليالى الغر سالفة » فكرر كلة « الغر » . لا شك فى أن هذا لغو لا طائل وراءه. وهذه الأبيات على طولها لا تحمل غير معنى تافه جداً. يريد أن يقول إن هذه ليال سعيدة فأسهب على غير جدوى .

وقال :

وكيف ولا وخديو مصر ألبسها … ثوباً من الطول مأمون من القصر
تجر أذيال إعزاز بمقـــدمه … حتى بها مصر سامت كل مفتخر
وفاخرت كل إقليم بناظرها … وقد جرى النيل عند الفخر بالخبر

فأى معنى تحمله هذه الأبيات ؟ أراد الرجل أن يقول إن البلاد فرحت بقدوم الخديو وابتهجت بعودته فلم يوفق فى إبراز هذا المعنى البسيط فى ثوب قشيب . فجعل الليالى تجر أذيال إعزاز وقال « حتى بها مصر سامت كل مفتخر » ثم كرر هذا المعنى فى قوله « وفاخرت كل إقليم بناظرها » وما هو المعنى الطريف أو الصورة الشعرية التى فى قوله « وقد جرى النيل عند الفخر بالخبر »؟ لن نخرج من وراء هذا الكلام بفائدة لا كثيرة ولا قليلة .

ثم قال :

أهلا بمقدم روح القطر من سعدت … به الرعية واستولت على الظفر
مليكنا المفرد السارى إلى نسق … فى العدل مسراه أعيى كل مقتدر
لقد خلعت على الألقاب ثوب علا … وشرفت بك بين البدو والحضر
حتى غدا أعظم الألقاب مفتقراً … إليك كى يرتقى فى عالم الصور
ولو يقـول بلغنا قدر قــدركم … أهدى اللسان ثناء الآى والسور

ومفهوم أن يقول إن الرعية سعدت بمقدم الخديو . أما قوله « واستولت على الظفر » فغير مفهوم ولا مقبول ولا مما يستقيم ولا مما يستساغ . ومعنى البيت الثانى تافه . وأراد أن يقول فى الأبيات الثلاثة الباقية إن الألقاب ارتفعت بالخديو وتشرفت فأتى بهذا المعنى الضئيل فى ثلاثة أبيات كلها عبث وهراء .

ثم قال :

فلا عدمنا أياديك التى عظمت … فى مصر حتى غدت الملك كالأسر
وازينت بقدوم جاء بقـدمه … طير المسرات بين الزهر والزهر
وكل ثغر غـدا بالبشر مبتسما … فاق الدرارى سنا فى رائق الدهر

والبيت الأول تافه المعنى . أما البيت الثانى فإنه جمع بين تفاهة المعنى وضعف التأليف . ولا أظن شاعراً يحترم نفسه يقول « بقدوم جاء بقدمه » . والبيت الثالث خلو من المعنى .

ثم قال :

والأنس دار بأقداح السرور وقد … حيا الرعية واستملى أخا النظر
فكل ذى فكرة أبدى نتائجها … فى مدح علياك لكن غير مبتكر
تملى عليه معانيك الحسان فما … يجيد شيئاً سوى تنظيم منتثر
لازال ذا الدهر يسعى فى رغائبكم … وما أردتم مراد الدهر والقدر

أما قوله « والأنس دار بأقداح السرور » ففيه صورة من حياة الندماء التى لازمته فى ذلك الوقت . وقوله « حيي الرعية واستملى أخا النظر » خلو من كل معنى . والأبيات التالية تافهة المعنى .

وقال :

والملك يبسم عن عدل يقارنه … تمام فضل وإحسان مدى العصر
ما اختال ذا القرفى برد الأمان بكم … وكف بالصفو كف البغى والكدر
وردت باريس سر الود تعلنه … وقد صدرت حميد السعى والسير
وعدت فى فتية فاقوا النجوم سناً … منك استمدوا وهم فى الدهر كالغرر

ومعنى البيت الأول قد تقدم قبل ذلك بأبيات . وكذلك صورة ابتسام الملك فقد وردت فى قوله « وكل ثغر غدا بالبشر مبتسما » . وليس فى الأبيات التالية من المعنى ما يستحق الذكر. وقد امتازت هذه الأبيات دون سائر القصيدة بظهور الصنعة اللفظية فيها . فهناك طباق بين « أمان » و « بغى » وبين « صفو » و « كدر » وجناس بين « كف » و « كف » . وطباق بين « ورد » و « صدر » .

وأول ما نلاحظه على هذه القصيدة أن الشاعر كرر بعض المفردات فذكر كلة « الدهر » ستة مرات. وقد كرر كذلك بعض التعابير . ومثال ذلك قوله « تسمو عن سنا القمر » و « فاق الدرارى سنا فى رائق الدهر » و « عدت فى فتية فاقوا النجوم سنا ». وقوله « وكل ثغر غدا بالبشر مبتسما » و « الملك يبسم عن عدل يقارنه. » كما كرر بعض المعانى على تفاهتها فإذا أضفنا إلى ما تقدم ضعفه المتناهى فى الصياغة استطعنا أن نقول إن الليثى لم يك شيئاً فى عهد اسماعيل .

والآن ننتقل معك يا على لنرى كيف كنت تقول الشعر فى زمن توفيق.

***

بعد أن فشلت الثورة العرابية شرع المصريون يتبرأون منها ويتنصلون من تبعتها . ومن كان منهم قد انضم إلى صفوفها أخذ ينتحل المعاذير ويذكر أنه اضطر إلى الانضمام إلى الثوار تحت الضغط والإرهاب . ولعبد الله فكرى قصيدتان طويلتان نظمهما عقب الاحتلال البريطانى نفى فيهما ما نسب إليه من ميله إلى الثوار . ولليثى قصيدة أنشأها فى هذا الغرض . ولكن الليثى فى قصيدته يبدو أنبل نفساً وأسمى شأناً من عبد الله فكرى. وقبل أن نتكلم عن قصيدة الليثى نريد أن نشير إلى ملاحظة صغيرة ؛ وهى أن العلاقة بين الشاعر وبين الخديو اسماعيل كانت قد فترت فى الأيام الأخيرة من حكم هذا العاهل . والدليل على ذلك أن الليثى كان قد شد رحاله إلى ضيعته . وهناك وصلت إليه قصيدة من عبدالله فكرى يبشره فيها بخلع اسماعيل . ومما جاء فيها قوله :

واقرأ على الشيخ الجليل تحيـة ... مقرونة بالشـوق والتبجيل
وقل البشارة مصر ولى أمرها ... توفيقها من بعد اسماعيـــل

ولو لم يكن عبد الله فكرى يأنس فى الليثى ارتياحاً لمثل هذا الأمر لما أسرع يزف إليه ذلك النبأ، وجعل من خلع اسماعيل بشارة يبعث بها إلى الليثى . والدليل على ذلك مذكور فى نفس هذه القصيدة وهو :

حتى إذا استأنست من تصديقه ... بعلائم التكبير والتهليل
فانهض به فى الحال نهضة مسرع ... للعـود لا يلوى على تعليـل

وعلائم التكبير والتهليل لا تبدو إلا ممن يطغى عليه الفرح والسرور . هذه مقدمة أتينا بها تمهيداً للكلام على قصيدة الليثى التى نظمها بعد هزيمة العرابيين والتى بدأها بقوله :

كل حال لضـــده يتحول ... فالزم الصـبر إذ عليـه المعول
يا فؤادى استرح فما الشأن إلا ... ما به مظهر القضـــاء تنزل
رب ساع لحتفه وهو ممن ... ظن بالسعى للعـــلا يتوصل
قـدر غالب وسر الخفايا ... فوق عقل الأريب مهما تكمل
غاية العقـــل حيرة وعقال ... واللبيب الذكى من فـد تأمل

وهذا كلام لا يقال فى قصيدة يريد ناظمها أن يعتذر فيها عما نسب إليه من تهمة خطيرة، ويتبرأ من ذنب عظيم ، ويطلب الصفح والمغفرة وهذا الاستهلال أليق بقصائد الرثاء ، ففيه حث على التزام الصبر، وحض على الرضى بالقضاء والقدر. ولم يكن المقام يستدعى ذلك . فقد كان الخديو توفيق فى حالة فرح وسرور بعد انتصاره على أعدائه واطمئنانه على عرشه وملكه فكان من المناسب أن يبدأ الشاعر قصيدته بالتهنئة أو الاعتذار. ولكنه لم يفعل ذلك بل افتتحها بهذه الأبيات التى يظهر عليها طابع الحزن والأسى والاستسلام الذى يتمثل فى قوله :

يا فؤادى استرح فما الشأن إلا ... ما به مظهر القضاء تنزل

فم استوحى الليثى هذه الأبيات؟ وما هو الدافع النفسى الذى حرك لسانه وأنطقه بهذا المطلع ؟ ومن هذا الذى خاطبه بقوله « فالزم الصبر إذ عليه المعول ؟

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نذكر أن الأحوال فى أوائل عهد توفيق لم تكن تسمح بعقد مجالس الأنس والطرب التى لا تظهر مواهب الليثى فى غيرها فلم تكن العلاقات بين الشاعر والخديو فى السنوات الأولى من حكمه كالعلاقات التى كانت بينه وبين اسماعيل إبان عظمته ومجده. ولو كانت الصلة قوية بين الليثى والخديو لصحبه إلى الاسكندرية فيمن صحبه من خاصته. ويتضح من هذا المطلع الحزين الباكى أن الشاعر انضم إلى صفوف العرابيين اعتقاداً منه أن حركتهم ترمى إلى صيانة الوطن والدفاع عنه ضد الانجليز. والليثى أزهرى ، والأزهريون قد انضووا تحت لواء العرابيين مدفوعين بالنخوة الدينية والعاطفة الوطنية فمن المعقول أن يحذو الليثى حذو إخوانه ويندمج فى صفوف العرابيين . ويشجعه على ذلك ورود الأنباء الكاذبة المنبئة بانتصار الجيش المصرى وانهزام الانجليز .

ولا شك فى أن الليثى قد خاطب نفسه فى هذه الأبيات وحثها على الصبر ، وحضها على الرضى بما جاءت به المقادير وبكى على ما أصاب البلاد من الكوارث والخطوب .

ثم قال :

كيف نفسى وحادثات الليالى ... فاجأتنا بكارث ليس يحمل
أذهبت أنفساً وغالت نفيساً ... وذوى مربع الحظوظ وأعمل
كان أقليمنا رياض صفاء ... فيـه للواردين أعذب منهـل

الكلام صلة

محمد سبر كيلوني